صحيفة المرأة المسلمة

العدد : ٢١٠ الموافق في صفر ١٤٢٠ هجري ٦ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : الموت المدروس	بقلم : سها عبد الحميد

دقت عقارب الساعة ليرن المنبه معلناً بصرامة أن النهار بدأ وانتهت ساعات الليل المحدودة ، وكالعادة خاب أمله في السباق مع المنبه المستقر في صدر كل أم تحمل هموم تربية أبنائها في هذه البلاد ، فالمنبه القابع في كل حواسي هو دائماً الفائز الأول في السباق .

وبدأت أجري لأسعف أولادي وأشحنهم بالوقود الذي يحتاجونه قبل الخروج إلى عوالمهم المتباينة ، وما أن اقتربت من سرير أولهم إلا وفتح عينيه قائلاً : ماما ! اليوم سيموت أندريه ، أليس هذا مؤسفاً جداً ؟! .. لم أجبه أبداً لأن بديهتي لم تكن حاضرة إلى الحد الذي يسمح لي أن أستوعب هذا السؤال .. وتنقلت من سرير إلى آخر ، وعمَّ البيت الضجيج النشيط إلى أبعد الحدود ، وبعد برهة قصيرة قرع جرس البيت كما يقرع كل يوم في مثل هذا الوقت فأصدقاء ولدي الثاني يذهبون إلى مدرستهم كمجموعة ، وما أن رأوه حتى قالوا له : هل تعرف أن أندريه سيموت اليوم !!.. قال بصوت هامد .. نعم للأسف .. وفي خضم هذه المعركة الصباحية وقفت أودعهم واحداً تلو الآخر وأنا مبهورة بوعودهم السخية في هذا الصباح .. ماما اليوم سأكتب واجباتي بسرعة وبخط مرتب . والثاني .. ماما هل تعرفين أن معلمتي ، قالت عني أني مهذب جداً . وازداد عجبي أن ابني الذي يتعبني عند قدوم وقت درس اللغة العربية .. قال لي : هل تعرفين يا ماما : مدرسة العربية جميلة جداً واليوم سأأخذ إن شاء الله عشرة من عشرة في الإملاء ؟!.. لكن الأصغر سناً والأكثر عفوية كشف لي سر هذه الوعود قائلاً : ماما لقد رتبت سريري ولم أنس نظارتي ،ما رأيك هل تسمحين لي أن أرى « كبرى إلف » وفهمت للحال محاولات الإغراء التي مهدوا لها للتخفيف من صرامة رفض لبرامج التلفاز ، وقد أقمت عليه حرباً منذ سنوات وتحولت أنا نفسي إلى تلفاز أقدم لأطفالي ما أقدر وما لا أقدر ليقبلوا بي كبديل محب يغار على طفولتهم في أن تخدشها هذه الوسيلة الإعلامية التي تزداد سوءاً على مر الأيام .. والتي لم تعد في غالب برامجها باستثناء القليل القليل إلا وسيلة هدامة مدمرة للمثل تقتل في حس الأجيال إدراكها لزمنها الخاص .. وتلعب بصياغة متفرجيها كيفما تشاء بلا حدود .. بل إلى حد الهذيان ..

وما الحادثة الأخيرة التي ضجت بها الدنيا وأثارت عجب الناس من قدرة بعض الطلبة الصغار على القيام بالإجرام والقتل .. بأبشع صورة إلا نتيجة فيلم تأثروا به ونقلوه من الشاشة إلى ساحة صفهم في المدرسة فقتلوا الطلبة وقتلوا أنفسهم .. نعم الإرهاب المجسد الشخصيات الخرافية والتفلت الأخلاقي ..

ذهب أولادي إلى مدارسهم وانخرطت أنا في مشاغلي الكثيرة ، لكن السؤال الذي طرحته على نفسي وعلى من حولي مازال يطاردني .. ما هو البديل ؟ ..

في بداية حربي مع التلفاز لم أجد الصعوبة التي تواجهني اليوم .. فمنذ أحس أولادي أنهم حالة نادرة بين الحالات التي يعرفونها ، ومنذ جعلت منهم مادة لهذه التجربة والتي تحتفظ بنتائجها في عالم الغيب وأنا معهم في حوار دائم ..

وزاد الأمر صعوبة أن هذا السيد الالكتروني ، الذي حاز على لقب عصب الدنيا ، سبق تفكيري وزمن تجربتي بمراحل ، وأصبح يقدم التلفاز بكل برامجه كمهمة سهلة على هامش أعماله المهمة .. وليس من الحكمة أن يفعل أولادك ما تريد لأنك أنت الذي تريد ، وإنما أن يفعلوا ما تريد لأنهم هم أيضاً يريدون . ومنذ أخذت تجربتي معهم هذه المعطيات الجديدة وأنا معهم في حوار دائم ومناقشة ؛ أغلِب فيها مرة بالحجة وأُغلب فيها مرة لأني لا أملك الحجة .

قطع تفكيري جرس الهاتف ليسألني صديق ولدي الصغير : هل يمكن أن أكلم عماد ؟.. فقلت له : عماد لم يعد بعد من الروضة قال لي بنبرة تأتمنني على تبليغ رسالة مهمة قولي له : .. اليوم سيموت أندريه .. فقلت له .. وأنا أمسك نفسي حتى لا يسمع صوت ضحكي ويظن أني أسخر منه .. من أندريه هذا ؟! .. هل أعرفه فقال لي : أندريه لا تعرفينه ؟! وانفجر بدوره ضاحكاً ولم يهتم أبداً بسؤالي الغبي في نظره .. قال لي قولي لعماد هو يعرف أندريه .. وبالطبع لم أسمح للصغار لأن وقت هذا المسلسل يتجاوز وقت نومهم ، ورافقت الكبار منهم مكرهة مبتسمة ، وكان لا بد أن أرى ما يرون لأحاورهم حول مضمون هذه المادة بالتي هي أحسن ، وأثناء جلوسي معهم كان المنبه الخاص بي يتنهد في صدري لأنه كلما مضى الوقت كلما أصبحت دقاته أسرع .. ودارت أحداث المسلسل الذي حطم الرقم القياسي في التحطيم المادي ، وإظهار البطولات الجبانة وتجسيد الشجاعة في شخص أندريه ؛ بثيابه الجلدية السوداء ، وبقيادته الخطيرة وعندما وصلت تضحيته الذروة ، وانتهى من استعراض طافته الخارقة للعادة، تدخلت الموسيقى الحزينة لتزيد الموقف لهيباً وعلت أصوات أولادي .. لا أنتبه سيموت .. يارب يارب أرجوك لا أريده أن يموت ،وهوى غريقاً وانهمرت دموعهم البريئة وأفلحت روعت الإخراج في أن تهزهم من الأعماق ، وعم الحزن المكان .. وخبأت دموعي أسوفها ،واعتذرت من أولادي بصمت وأنا أطوف عليهم وهم ينامون أطبع على وجنة كل واحد منهم قبلة اعتذار ، قبلة حب عاجز في أن يقدم لهم البديل . وهل انتهت هذه السلسلة مع انتهاء الحلقة الأخيرة في هذا المسلسل الذي لم أجد فيه إلا إطفاء

هيبة القتل والخراب .. فالغارق في الدماء لا تهزه الجروح البليغة ..

إنها آفة أمتنا في الشرق والغرب ؛ ألم تستحوذ عائلة دلاس على القلوب والعقول في بلادنا ؟.. لتعرض رفاهيتها المستبدة ومثلها المنهارة من خلال حياتها اليومية ، ألم تتابع شعوبنا كلها على الإطلاق كباراً وصغاراً أحداث كسندر الغجرية الحائرة .. إلى أن لعبت بثيابها الفاضحة بأسواق دمشق لتملي على بضائعها مواصفاتها الشخصية بل وهزت اقتصادها ؟.

إن الناس يحتاجون المادة التي يملؤون بها أوقات فراغهم .. وما زلنا إلى اليوم محنطين على عتبات الإستيراد .. وإلى متى نبقى مقتنعين ومصرين على موقعنا في جملة العالم مفعولاً به ، عاجزين عن أن نكون فعلاً أو فاعلاً ؟؟؟